مرحلة ما قبل الرسالات

لما كانت نزعة التدين فطرية فى الإنسان ؛ لأنها مطلب روحى وعقلى فى آنٍ واحد ، تتصورها العقول ، وتشتاق إليها القلوب اشتياق الجسد إلى الطعام والشراب .

لما كان الأمر كذلك فإن المجتمعات البَشرية فى كل زمان ومكان عرفت النزعة الدينية حتى فى العصور البدائية . وصال العقل وجال فى هذا الميدان الرهيب ، وكادت التصورات العقلية تتعدد بتعدد البيئات ، بل بتعدد عقول المفكرين فى تلك البيئات . وهذا التعدد والاختلاف مصير حتمى عندما يستقل العقل بالتفكير فى موضوع لم تؤهله قدراته على الوصول إلى القول الفصل فيه .

ويكفى أن نضرب أمثلة لاضطراب التصورات العقلية فى ما وراء الطبيعة ، أو العقائد الدينية فى بيئات قديمة على النحو الآتى :

● **بيئة قدماء المصريين :**

عرفت البيئة المصرية القديمة شيئاً عن توحيد « الإلَه » فى عبادة « آتون » ، ومع هذا لم تخل هذه العقيدة من شوائب الشرك ، حيث كانوا يعبدون « الشمس » فى صورة إلَه ؟!

ثم أخذت عقيدة المصريين تقترب خطوة بعد خطوة من العقائد الوثنية وتعدد الآلهة فى آنٍ واحد .

وكان سبب التعدد عندهم هو النظر فى صفات الإله الواحد . فقد جعلوا

لكل صفة منها « تمثالاً » ، ثم اتخذوا هذه التماثيل آلهة وعبدوها كما يُعبد الإلَه الواحد ؟ ثم أطلقوا على كل صفة اسم إلَه :

فالإله الخالق عندهم هو « بتاح » ، وعقل الإله هو « عمون » ، وروح الله هو « توم » ، وإله التوليد هو « خام » ، ثم وصفوا « خام » هذا بأنه « أبو أبيه » أى الولد أبو والده ؟!

هذا فى شأن الآلهة الذكور ، أما الآلهات الإناث فهن : « أموت » ، وهى - عندهم - ولدت نفسها ؟! و« إيزيس » امرأة الإله « أوزوريس » وهو إلَه الخير . أما إلَه الشر - عندهم - فهو « تيفون » ؟!

بل أضافوا إلى هذه « الجماعة من الآلهة » آلهة أخرى من المخلوقات الحسية كالأسد والذئب والكلب والمعز والكباش والنيل ؟!

ووسَّعوا أبواب الدخول فى « الألوهية » ، فكل مَن اخترع شيئاً جديداً أو ألَّف كتاباً مفيداً صار - عندهم - إلَهاً ؟!

وظاهرة الصراع بين الآلهة - عندهم - شئ سائغ ومألوف !!

فقد زعموا أن « تيفون » إله الشر قتل « أوزوريس » إلَه الخير ؟! ، ولكن « أوزوريس » عاد مرة أخرى بعد قتله ؟! وتغلب على « تيفون » إلَه الشر .

هذه صورة موجزة للاضطراب العقلى عند قدماء المصرين حين اعتمدوا على عقولهم فى تصور العقائدة الدينية .

*

* التثليث والفداء :

يثبت غير واحد من علماء المقارنة بين الأديان أن المصريين القدماء عرفوا عقيدة « التثليث » فى بعض المراحل ، يقول العلامة « أدون » : أن كهنة هيكل

« مانفيس » بمصر - قديماً - كانوا يعبرون عن الثالوث الأقدس بقولهم : إن الأول خلق الثانى ، والثانى مع الأول خلق الثالث !

وأن بعض ملوكهم كان يقول : « الابن أولاً ، ثم الكلمة ، ومعها روح القدس ، وأن لهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت الأبدية » !

أما عقيدة الفداء فيقول عنها السير « ديل نكسن » : كان قدماء المصريين يصفون « أوزوريس » بالصالح الإلَهى ، وجالب الفكرة الصالحة ، وأنه قام من بين الأموات ، بعد أن ضحَّى بنفسه وقدَّمها للذبح ليهب الناس الحياة !

ويقول البحَّاثة « بونيك » فى كتاب « عقيدة المصريين » : إنهم كانوا يعدون « أوزوريس » أحد مُخَلِّصى العالَم !

وقال « أمورى » فى كتابه « الخرافات » : إن قدماء المصرين كانوا يعدون « أوزوريس » أعظم مثال لتقديم النفس ذبيحة لينال الناس الحياة !

❊

❊ تعقيب :

إن عقيدة قدماء المصريين فى الأمور الدينية حسب الموجز الذى قدَّمناه لدليل قاطع على اضطراب العقل فى تصور « الغيبيات » أو البحث فى ما وراء الطبيعة . وبرهان ساطع على أن العقل حين يُقحِم نفسه - بلا هادٍ يهديه - فيما ليس هو مؤهلاً له ، فإن الأوهام تسيطر عليه ، وتتشعب به الطرق ، إن أصاب مرة أخطأ عشرات المرات ، وليس له من نفسه من عاصم ولن يكون .

❊ ❊

● بيئة قدماء اليونان :

اليونان من أمم الحضارات القديمة ، ما فى ذلك من شك ، ولكنهم لما تصدوا لعالَم ما وراء الطبيعة خلطوا صواباً قليلاً بأخطاء لا تكاد تحصر . وفى السطور الآتية نوجز الحديث عن عقائدهم فى « الألوهية » عامة ، كما نشير إلى خطأ أكبر عقل من عقولهم فى تصور صفات « الإلَه » .

❊ العقائد العامة :

أبرز السمات فى عقائد اليونان التعدد والوثنية ، فهم مثل قدماء المصريين يجعلون لظواهر الحياة آلهة ، كل إلَه مختص بظاهرة ، بَيْدَ أنهم يفوقون المصريين فى التعدد بشكل ملحوظ ، والآلهة عندهم يتوالدون ويتناسلون ، وهم يقسمون الآلهة قسمين :

آلهة الدرجة الأولى ! ثم آلهة الدرجة الثانية - أو أنصاف الآلهة .

أقدم آلهة الدرجة الأولى هو « ساتورن » وهو الكوكب المعروف بـ « زحل » تزوج « ساتورن » هذا « سبيلة » وهى الأرض الزراعية ؟! ، ومن أولاده الإله « چوبيتر » أو رب الأرباب ، و« چوبيتر » طرد أباه « ساتورن » من السماء ، وقسَّم العالَم بينه وبين إخوته ، فأخذ هو العالم العلوى ، وأعطى سلطنة المياه - البحار - لأخيه « نبتون » ، وسلطنة الجزر لأخيه « أبلوطون » ، ثم تفرغ « چوبيتر » لخلق النوع البَشرى ؟!

ثم وُلِد لـ « چوبيتر » أولاد كثيرون كل منهم صار إلهاً ، ووُلِد له بنات كذلك ، وتمضى الرحلة مع عقائد اليونان فترى للأفراح والأعراس إلٰهة : « همنة » ، وللجمال والصبا إلٰهة : « هيبى » ، وللحرب إله : « مارس » ، وللحكمة إلٰه : « منيرفا » ، وللتجارة إلٰه : « ماركور » ، وللتناسل إلٰهة : « ڤينوس » ، وللشهوات إلهة : « زهرة » ، وللنار إلهة : « زهرة » أُخرى !

وللثروة والغنى إلٰه : « بلوطس » ، وللثمار إلهة : « برمونة » ، وللأزهار إلهة : « أكلورة » ، وللألعاب والملَّذات والضحك إله : « مومس » !!

ويجمع المؤرخون أن اليونان توسعوا جداً فى تعدد الآلهة ، فجعلوا لكل شئ حسياً كان أو معنوياً إلٰه . فالليل والنهار والطرق وجميع الأماكن لها آلهة ، والصفات الحميدة كالصدق والوفاء لها آلهة ، والصفات الذميمة كالحسد والخيانة لها آلهة ، إنهم مسرفون غاية الإسراف فى هذا المجال ولم يعصمهم عقل أو يضبط تصوراتهم فكر .

وتبع هذه التصورات الخرافية نماذج من الطقوس والسلوك الخرافى فى كل مظاهر حياتهم . وتبحث عن « الإله » الحق فى هذا الركام الأسطورى ، فلا تعثر له على أثر .

أُمة لها فى التاريخ « تاريخ طويل » قادها فكرها العقلى - إن صح هذا التعبير - للوثنية وعبادة الأصنام ، وعقيدة المُخَلِّص المصلوب خدمة للناس !!

*

*** أرسطو وأوهامه :**

من أشهر عقلاء اليونان وفلاسفتهم فيلسوفهم المعروف بـ « أرسطو » ، والمؤرخون - حتى المعاصرون منهم - معجبون بفلسفة « أرسطو » فى العقيدة الإلٰهية ، ويقولون : إنها بلغت الذروة فى التنزيه والتجريد والتوحيد ، ويُقدِّمون فلسفته فى هذا المجال على فلسفة « أفلوطين » إمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وشيخ الفلاسفة الصوفيين عند علماء الغرب فى العصر الحديث ؛ لأن فلسفة « أرسطو » فيها نصيب من العقل والمنطق والتفكير المنظَّم ، أما فلسفة « أفلوطين » فهى عند المؤرخ الحديث إنما هى ضرب من ضروب التوهيم والغيبوبة ، فهى إلى العدم أقرب منها إلى الوجود .

ومع هذا فإن « أرسطو » صاحب العقل الكبير كان خطؤه فى العقيدة الإلهية أكثر وأفدح من صوابه . وحين تسير مع فلسفة « أرسطو » فى الإلهيات فلا تكاد تخطو بضع خطوات مع الصواب حتى تجد الرجل قد هوى من حالق ، وأن خطأه وباطله قد محا صوابه وحقه من أقصر طريق !

أصاب « أرسطو » حينما قال عن الإله : إنه كائن أزلى أبدى مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، وليته توقف عند هذا القول الذى أصاب عين الحقيقة فى النعوت الإلٰهية .

وأخطأ أرسطو حين قال : « ولا عمل له ولا إرادة ، وأنه لا يعقل إلا ذاته ، وأنه لم يخلق العالَم ، وأن مادة العالَم الأولى « الهيولى » ، بل مادة العالَم تحركت نحو الوجود شوقاً إليه ، وتعمل وتتحرك بما فيها من الشوق ، ولا يقال إنها من خلق الله . . » .

أراد أرسطو - بعقله الهائل النادر - أن ينزه الله فجرَّده من صفات الألوهية ، وقد سوَّغ له عقله - غير المعصوم - هذا التجرد ، فالإله - عنده - لا يعمل ؛ لأن عقله - عقل أرسطو - خَيَّل إليه أن العمل طلب لشئ . والله غنى عن الطلب ، فهو إذن لا يعمل !!

والإلَه - عنده - ليست له إرادة ! وقد خيل إليه عقله أن الإرادة نقص ؛ لأنها مقارنة بين أمرين أو أكثر ثم اختيار الأفضل والأصلح ، والله تستوى عنده الأمور فى العلم ، ولا يحتاج ؛ لأنه كامل كمالاً مطلقاً ، لمعرفة الفاضل من الأفضل ، أو الصالح من الأصلح !

والإلَه - عنده - لا يعقل - أى لا يعلم - إلا نفسه ؛ لأنه لو علم ما فى العالَم لزم اتصافه بما فيه . وفى العالَم نقص ، والله لا يوصف بشئ من النقص ؛ لأنه كامل !

وهكذا يهدم « أرسطو » ما بناه بعقله فى عقيدة الإله . يهدم بعقله ما بناه

بعقله ؛ لأن العقل - سواء فى ذلك عقل أرسطو وعقول غيره من العقلاء - لا يستقل بنفسه فى « الغيبيات » ، بل لا بد لجميع العقول من هادٍ يهديها فى هذا المجال .

لم يستطع « أرسطو » إذن ، وهو صاحب العقل الكبير ، والمنطق الذى دعاه أنه يعصم العقل من الخطأ فى التفكير ، لم يستطع هذا « الأرسطو » أن يُقدِّم للفكر البَشرى إلهاً يملأ القلوب ، ويقنع أرباب العقول ، ويهدى النفوس الحيرى إلى إله صمد تعنو له الجباه والوجوه ، ويُخَص بالعبادة والدعاء ، ويُلْجأ إليه فى المهمات .

إذ ما حاجة البَشر إلى « إلَه » غير خالق ، وغير مدبر ، إلَه معزول عن العالَم ؟! إلَه لا يدرى عن العالَم شيئاً ، ولا يهتم إلا بنفسه ؟! إله لا ينفع ولا يضر ؟!

وإذا كان « أرسطو » صاحب العقل - العالَمى - الكبير ، يقع فى هذه الأخطاء فى عقيدة الألوهية ، فما بالك بأصحاب العقول التى لم تبلغ مبلغ عقل « أرسطو » فى التأمل والبحث ؟! وقد دَلَّ تاريخ أصحاب العقول الكبيرة - غير أرسطو - على أنهم لم يكونوا أسعد حالاً من « أرسطو » ، منذ القِدَم ، حتى عصر النهضة فى أوروبا . فالتخبط والاضطراب هما السمتان البارزتان لدى أصحاب العقول « الحرة » التى أدارت ظهرها لهدى الله ، أو لم تكن تعرف من هدى الله شيئاً ، وتوهمت أنها قادرة على السير حتى النهاية فى هذا الطريق الوعر ، فتحطمت قوائمها وهى فى بداية الطريق .

* *

● البيئة الفارسية :

ظهرت فى البيئة الفارسية - قديماً - عدة اتجاهات دينية ، وهى بيئة مجوسية انحرفت عقائدها فى الألوهية ، فظهرت فيها ديانة زرادشت ، ومزدك ،

والمثنوية ، والدهرية ، وتقوم هذه الديانات على التعدد « الإثنينى » ، أى يعتقدون بـ « وجود إلَهين اثنين مع اختلاف التسمية » :

فمرة هما : بزدان وأهرمن ، ومرة هما : النور والظلمة ، ويعللون ذلك بأن الخير له « إلَه » هو « بزادن » وأن للشر « إله » هو « أهرمن » ، وهما متساويان فى الأزلية ، وكانوا يعبدون « بزدان » ويطلبون منه الخير لأنفسهم ، أما « أهرمن » فيطلبون منه الشر لأعدائهم ، ومع هذا فإنهم كانوا شديدى الكراهية لأهرمن ، ويعبرون عن هذه الكراهية فيكتبون اسمه مقلوباً من الشمال إلى اليمين هكذا : « نمهأ » ، ويقولون : إن الموجودات كلها صدرت عنهما ، وادعى أنه رسول موحى إليه .

وتنسب الزرادشتية عندهم إلى « زرادشت » أحد حكمائهم الذى توفى عام ٤٨٧ قبل ميلاد عيسى عليه السلام ، وكانوا يصفونه بأنه « المرسل الإلهى ، والحى المبارك ، والواحد الأبدى » !!

وكان الزرادشتيون يؤمنون بانتهاء العالَم ، وبقيام الأموات ، ويُدَان كل مخلوق بما كسبت يداه ، وأن الأشرار يذهبون بعد القيامة من الموت إلى مكان مظلم وعذاب أبدى ، والأخيار يذهبون إلى مكان نور وسعادة لا ينالهم شر إلى الأبد .

ومن هذا العرض الموجز ترى أن « زرادشت » خلط صواباً بباطل ، وأن باطله هدم صوابه .

أما « مزدك » فهو فيلسوف فارسى ظهر فى عهد الملك « كيقباذ » والد الملك « أنوشروان » ، ويقوم مذهبه على « الإثنينية » : النور والظلمة ، أو الخير والشر ، ويفرق « مزدك » بينهما بأن النور يفعل بالقصد والإرادة والاختيار (عاقل) ، أما الظلمة فتعمل بالخبط والخلط (حمقاء) ، وأن النور عالِم مبصر ، والظلمة جاهلة عمياء .

ومن فلسفته قوله بأن سبب الشرور والفساد فى الأرض هما : الأموال والنساء ، ورأى أن القضاء على هاتين الآفتين يكون بإباحة النساء لجميع الرجال فلا يختص رجل بامرأة ، بل له أن يعاشر مَن شاء منهن !!

وكذلك جعل الأموال شركة بين الناس جميعاً كالماء والهواء !!

وبقليل من التأمل ترى أن « مزدك » عالج فساداً قليلاً بفساد هو وباء مستطير .

❊

❊ وَهْمٌ خالص :

وعقيدة « مزدك » فى « الإلَه » وَهْمٌ خالص ، فقد صوَّره للناس بأنه : جالس على كرسيه كما يجلس ملوك الأرض ! وأن بين يديه أربع قوى يدبر بها شئون العالَم هى : الفهم ، والتمييز ، والحفظ ، والسرور . ويستعين بسبعة وزراء يعملون مع اثنتى عشر ذاتاً روحانية ! وأن مَن اجتمعت لديه القوى الأربع والوزراء السبعة ، والاثنتا عشر روحاً ارتفع عنه التكليف ، وصار ربانياً فى العالَم السفلى !!

وإلى جانب هذا الخلط الشنيع ظهرت فى فارس عقيدة الدهريين ، وهى ترادف الإلحاد فى إنكار إله للكون : خالق ومدبر . وتُبنى هذه العقيدة على أن المادة الكونية وُجِدت بقوة كافية فيها ، وأن الكون وُجِد بلا بداية ، وسيظل هكذا بلا نهاية !!

❊ ❊ ❊